التربية الأخلاقية في زمن اغترابي

أ.د. علي أسعد وطفة

جامعة الكويت

كلية التربية

watfaali@hotmail

نقد وتنوير

مقاربات نقديّة في التّربية والمجتمع

التربية الأخلاقية في زمن اغترابي

بقلم - علي أسعد وطفة

مقدمة:

استطاعت الإنسانية أن تحقق تقدما حضاريا هائلا في مختلف أوجه الحياة وفعالياتها في القرن الماضي، وارتفع مستوى الحياة بتأثير الانتصارات العلمية المذهلة في مختلف المجالات الاقتصادية والتكنولوجية، وتواترت الاكتشافات العلمية ، ثم وتكاثفت في مختلف الميادين لتحقق تقدما كبيرا مذهلا في مختلف أنماط الحياة والوجود الإنساني، وتقاطرت الثورات المتعاقبة في مجال الاتصال والمعلوماتية والفضاء والفيزياء والميتافيزياء والنظريات العلمية التي أحدثت تغيرا مذهلا في بنية العلاقات والتصورات الإنسانية، وقد شكلت هذه الاكتشافات والاختراعات والثورات طفرة نوعية هائلة في طبيعة التطور الإنساني، وثورة في طبيعة العلاقات الإنسانية القائمة فيه.

لقد اعتقد كثير من الناس أن التقدم العلمي والتكنولوجي والاقتصادي يمكنه أن يحقق الرفاه الشامل والكامل للبشر وأن يحقق السعادة الكاملة للإنسانية جمعاء. لكن **ومع أهمية التقدم التكنولوجي الذي جعل التواصل الإنساني ممكنا وسهلا وسريعا فإن ذلك لم يحدث تقدما في**

فن التفاهم والتواصل الأخلاقي والإنساني. فالجانب المضيء للقرن العشرين يقابله جانب مظلم يتمثل في الحروب والصراعات الدموية الكبرى والصغرى التي أودت بحياة ملايين البشر. فالحروب التي شهدها القرن الماضي كانت أكثر دموية من كل الحروب التي شهدتها الإنسانية عبر التاريخ وكان عدد الضحايا أكبر بآلاف المرات من عدد الضحايا الذين سقطوا في العصور القديمة والوسطى مجتمعة. واستطاعت الحرب الباردة التي فرضتها القوى الكبرى خلال النصف الثاني من القرن العشرين أن تدفع الإنسانية نحو البؤس والشقاء والعدم.

وفي مواجهة هذا الجانب المظلم للحضارة، تقفز إلى الذهن أسئلة حيوية كثيرة أهمها: **كيف يمكن لنا أن نعدّ مواطنين يمتلكون حسّ المسؤولية في عصر تعصف به التغيرات المذهلة؟ وما أفضل الطريق التي يمكن أن تعتمد في عملية بنائهم وتربيتهم؟ كيف يمكن لنا اليوم بناء مجتمع أخلاقي يخلو من العنف والإدمان والجريمة ومختلف أشكال الانحراف؟ كيف يمكننا مساعدة الشباب والناشئة على تفجير طاقاتهم العقلية والإنسانية في مختلف المستويات الانفعالية والاجتماعية؟ كيف يمكن أن ننمي فيهم الإحساس بالقوة والمسؤولية؟ وما المسؤولية التي تقع على عاتق المدرسة والأسرة من أجل بناء نسيج اجتماعي يتميز بطهره ونقائه؟**

ومن الواضح أن الإجابة عن هذه الأسئلة تتجاوز حدود التشريعات القانونية وتتخطى جميع البرامج العامة والحكومية إذ لا يمكن لأي حكومة مهما بلغت قدرتها أن تفرض نفسها في المجال الأخلاقي الذي يقع في قلوب الناس ووجدانهم ويتجسد في شخصهم الإنساني.

فالعصر يشهد تحولات وتغيرات عميقة، والاكتشافات العلمية والتكنولوجية تخطف التقاليد وتهدم القيم وتصدم المعايير التقليدية للوجود، التي أصبحت غير قادرة أبدا على مواكبة التغيرات الاجتماعية الشاملة والعميقة. وفي دائرة هذه المواجهة بين التقاليد والحداثة يشهد العصر تراجعا غير مسبوق في المستوى الأخلاقي وفي المستوى الأسري حيث بدأت العائلة تتفكك وبدأت معدلات الجريمة والعنف والإدمان والمخدرات تتزايد، وبدأنا نشهد تدميرا منظما ومخيفا للبيئة في البر والجو والبحر.

في الماضي القريب كانت هذه المشكلات محدودة، وكانت تشكل جانبا من المشكلات التي تعانيها المجتمعات الصناعية الغربية، ولكنها تشكل اليوم مشهدا كونيا يضرب في مختلف أنحاء المعمورة ويخطف مختلف الثقافات الإنسانية، ويضرب شعوب الأرض في مختلف ضروب حياتهم اليومية،

ولا يمكن اليوم لمجتمع ما مهما بلغت عزلته أن يكون في مأمن من غوائل المشكلات والتحديات الكبرى التي تواجه المجتمع الإنساني برمته دون استثناء.

ومن الواضح اليوم أن جوهر هذه المشكلات يعزى إلى الانحدار الأخلاقي وإلى تنامي ظاهرة الفردانية وتكاثف الرغبة في إشباعات فورية للميول والغرائز البشرية، وذلك في أجواء أصبحت فيه القيم نسبية ذاتية وتعسفية اعتباطية؛ حيث تخرج من دائرة المنطق والعرفان. وفي دائرة هذا الانحدار القيمي بدأت الحياة الاجتماعية تفقد مخزون دلالاتها ومعانيها. وقد أثرت هذه الوضعية بشكل لاشعوري في تنمية نمط من السلوك التدميري الذي نشاهده في عالمنا المعاصر.

وإنه لمن المؤكد اليوم أنه ومن غير الإحساس بوجود قيم إنسانية مشتركة تتميز بغائيتها وثباتها فإن المجتمع الإنساني يتشظى وينشطر في وضعية يستسلم فيها الأفراد والجماعات إلى متطلبات المصالح والنزوات والرغبات الأنانية المدمرة.

ومن الواضح تماما بأنه يمكن للتربية الأخلاقية أن تواجه إلى حدّ كبير ثقافة العنف والإدمان والجريمة عند الشباب، ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى ثلاثة مؤسسات تربوية هي الأسرة والمدرسة والمؤسسة الدينية. وتفيد الملاحظات الجارية **أن المدرسة لم تتقن حتى اليوم** فن التربية الأخلاقية وبث القيم ولم تستطع أداء دورها التاريخي في هذا الميدان، والأسرة كما أوضحنا تعاني من التفكك والتصدع والانهيار، أما المؤسسات الدينية فإنها تعاني من مشكلات التعصب والتطرف التي نلاحظها في كثير من أصقاع العالم. وهذه الوضعية تجعلنا إزاء أزمة مجتمعية أخلاقية تربوية خانقة بامتياز. فالمجتمعات الإنسانية المعاصرة تواجه مأزقا تربويا تاريخيا في جوهره وهذه الأزمة ترتبط بالظروف الاجتماعية والتاريخية التي تمرّ بها المجتمعات المعاصرة. ومن الملاحظ في هذا السياق أن هذه الأزمة الأخلاقية تؤدي إلى توليد عدد كبير من التحديات والمشكلات الاجتماعية المعقدة جدا والمزمنة بحيث أن الحكومات تلهث وراءها دون جدوى من حيث توالدها وتعظمها بصورة مستمرة ودائمة.

الرفاه الاقتصادي وانحدار القيم الأخلاقية:

وبالعودة إلى دور الأوضاع الاقتصادية يمكن القول بأن تحسن الأوضاع الاقتصادية لم يجد نفعا في خفض مستويات الأزمة الأخلاقية في المجتمع. لقد بينت الإحصائيات والدراسات الجارية في الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحقيقة بوضوح كبير وذلك عبر المقارنة بين التحسن في الأوضاع الاقتصادية وارتفاع مستوى الجريمة والعنف. لقد بينت الإحصائيات الجارية في الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ما بين عامي 1960 و1990 أن الولايات المتحدة قد زادت من الميزانية الاجتماعية بنسبة 500% خلال هذه الفترة، ولكن تلك الزيادة ترافقت بزيادة مماثلة لها في مستوى الجريمة والعنف والإدمان والمخدرات حيث بلغت نسبة الزيادة في هذه الجرائم 500%. وهذا يعني أن التحسن الاقتصادي لم يؤد إلى تراجع مستويات الجريمة والعنف، حيث تبين التفاصيل الإحصائية في نفس الفترة أن نسبة الولادات غير الشرعية قد زادت 400%، كما زادت نسبة الطلاق 400%، وارتفعت نسبة الانتحار بين الشباب إلى 200% وذلك كله في الفترة المذكورة[1].

فالمليارات التي أنفقت في البرامج الاجتماعية التنموية لم تكن ذات تأثير كبير في الأخلاق والقيم. فالمال يؤثر دون أدنى شك ولكنه لا يستطيع إيجاد الحلول الجذرية للمشكلات الأخلاقية.

وفي دائرة هذه المواجهة، يرى عدد كبير من المسؤولين أنه يجب العمل على معالجة جذرية لهذه الأزمة من حيث تنبت وتنبع من أجل احتواء نتائجها. فنحن نواجه تحديات حيوية ذات طابع داخلي سيكولوجي وتربوي بالدرجة الأولى. **والمسألة برمتها ترتبط بقضايا وجدانية روحية أخلاقية تدور حول القيمة الأخلاقية، أي ما هو جيد وما هو سيء؟ ما هو صحيح أو خاطئ؟ ما هو خيّر أو شرير؟ وتلك هي أسئلة أخلاقية بالطبع والجوهر.**

كتب المؤرخ البريطاني أونولد توينبي(1889-1975) Arnold J. Toynbee في كتابه حضارة على المحك *La civilisation à l'épreuve* **يقول "كلما ازدادت قوتنا المادية تنامت حاجتنا إلى الفهم الروحي وذلك من أجل استخدام قوتنا الافتراضية طلبا للخير ورفضا للشر والرزيلة... ونحن لم يكن**

1 - Benneth (William J.), Is our Culture in Decline?, Education Week, avril 1991.

لدينا أبدا هذا المستوى الروحي المناسب كي نوظف طاقتنا المادية في المسار الصحيح؛ ونحن اليوم نعاني من انحطاط أخلاقي أكبر من أي وقت مضى عبر العصور التاريخية السابقة "[2].

ويمكن القول بطريقة مجازية: إن جوهر المشكلة الإنسانية يكمن في التكوينات الداخلية للكائن الإنساني نفسه، وهذا الأمر يجب قوله والإعلان عنه، ويتأتى أنه لا يمكن أبداً معالجة المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الأزمة الأخلاقية بحلول تكنولوجية أو حكومية. فالمجتمع الجيد لا يمكن أن يكون كذلك إلا من خلال التربية الأخلاقية التي تؤدي إلى تنمية الشخصية وتأصيلها بالقيم الإنسانية والروحية الخلاقة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يمكن الوصول إلى هذه الغاية؟ وما دور التربية في عملية بناء المجتمع ومواجهة التحديات الأخلاقية الاجتماعية؟ وهذه المسألة ستكون محور مقالتنا هذه.

كل ما نؤديه ونفعله في الحياة يستند إلى الطباع والشخصية. فطباع المرء تحدد للإنسان ما يجب عليه أن يفعل وكيف يمكن أن يوظف قدراته وإمكانياته. وهذا الأمر يؤكد الأهمية الكبرى للتربية الأخلاقية التي تشكل طباع المرء وعقليته، وكان للتربية قديما اعتبار كبير بوصفها أداة فعالة في تثقيف الأفراد وإعدادهم. **ولكن الدراسات الجارية حول التربية تشير إلى تراجع البعد الأخلاقي في مختلف أوجه الحياة التربوية وفعالياتها المختلفة**. ويمكن القول في هذا السياق أنه يمكن للتربية في مجتمع تعددي وديمقراطي أن تبث القيم الكونية العامة دون أن تقلل من أهمية الحقوق الفردية والخاصة للأفراد والجماعات فيه. ويمكن في هذا السياق أيضا الحديث عن تربية متوازنة تمكن من بث القيم والمهارات والمعارف بطريقة متكاملة وأصيلة بحيث تتم المحافظة على البعد الأخلاقي وتكوين الخصائص الإنسانية التي تعطي الإنسان معناه ودلالته الإنسانية.

تفكك العائلة وضرورة التربية الأخلاقية:

شكل النصف الثاني من القرن الماضي مهاد ولادة أزمة إنسانية مخيفة وفتاكة تتمثل في الانفجار القيمي والأخلاقي للحياة الأسرية والعائلية. وتأخذ هذه الأزمة صورة وباء ينتشر ويزمجر في

2 - Toynbee (Arnold J.), La civilisation à l’épreuve, Gallimard, Paris, 1951.

كل مكان من بلدان المعمورة. فالعنف الزواجي، والخيانات بين الأزواج، والعنف الموجه ضد الأطفال، والطلاق، والتفكك العائلي أصبحت ظواهر عامة وشائعة في كل مكان. فالأطفال يبتعدون عن آبائهم، ولا يوجد هناك احترام بين الأزواج، حيث يهتم كل بنفسه دون الآخر.

ويلاحظ في هذا السياق أن التفكك العائلي يأخذ مداه في البلدان الغنية والمتطورة. وهنا يبدو عبثا الاعتماد على الازدهار الاقتصادي والحريات السياسية من أجل تحسين الأحوال الأسرية والأخلاقية في البلدان النامية. وهذا يعني أنه يجب علينا أن نبحث خلف الأزمة العائلية عن سبب وجيه وجوهري آخر غير الأسباب الاقتصادية. وهذا يعني أنه إذا كانت خلايا الجسد مريضة فبشر الجسد بالمرض والحمى.

فالتفكك العائلي، الذي سجل أرقاما قياسية خلال العقود الأخيرة من الزمن، أدى إلى ارتفاع كبير في مستوى المعاناة الشبابية، وزاد في مشكلاتهم وصعوبات حياتهم. فالشباب تحت تأثير هذا التفكك يفتقدون المعايير الأساسية للحياة الأسرية الحقّة، ويدفعهم هذا الوضع إلى دائرة الأزمات ويضعهم في خضم المشكلات العائلية والاجتماعية العاتية. **لقد اندفع الشباب في البدان المتقدمة تحت تأثير الحريات والثراء إلى تعاطي المخدرات وممارسة العنف والإسراف في اللهو والمتعة والجنس. واستطاع الشباب الغربي أن يولد ثقافة شبابية جديدة قائمة على المتعة والإدمان والجنس والإباحة**، وأن يصدرها إلى مختلف شرائح الشباب في مختلف أنحاء العالم عبر وسائل الاتصال المتاحة، ولاسيما الشبكة العنكبوتية والتلفزة والميديا وغير ذلك من وسائل الاتصال.

لقد بينت الدراسات الاجتماعية الجارية **بأن تفكك البنية الداخلية للعائلة يؤدي إلى توليد مشكلات اجتماعية كبرى تفوق قدرة المجتمع على تجاوزها. وبينت هذه الدراسات بالمقابل أن المشكلات الاجتماعية تكون أقل حدّة كلما كان التماسك الأسري أكثر صلابة وقوة واستقرارا.** وهذا يعني أن التماسك العائلي يشكل ضمانة لمجتمع إنساني متماسك وأخلاقي، فالعائلة تشكل المدرسة الأولى للمحبة والتعاون والتعاضد والتفاعل الإنساني المثمر. ومما لا ريب فيه أن العائلة تمتلك القدرة على تزويد الناشئة بنسق من القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية من أجل تحقيق أسمى متطلبات وجودهم وغاياتهم في الحياة. وأن التربية العائلية على القيم تشكل حصانة كبرى يمكن اعتمادها لمنع الأطفال من الوقع في مستنقعات الجريمة والإدمان والانحراف.

والسؤال الذي يمكن طرحه في هذا المقام هو: **هل يمكن للدول المتقدمة اليوم أن تتجنب المشكلات الاجتماعية مع المحافظة على تقدمها الصناعي وثرائها المادي؟** والإجابة عن هذا السؤال ممكنة بالإيجاب، ولكن بشرط أن تقوم هذه الدول بتعزيز **وتأصيل التربية الأخلاقية لتجعل من القيم الأخلاقية متراسا إنسانيا يمكّنها من مواصلة مسارها التنموي المادي دون مشكلات اجتماعية كبرى. وبعبارة أخرى يجب على هذه الدول أن تجعل المجتمع مجتمعا أخلاقيا إذا رغبت في تجاوز مختلف المشكلات الاجتماعية**. وهذا يتطلب العمل على بناء تربية أخلاقية تعني بالشخصية والتكوينات الوجدانية الداخلية للإنسان. وهنا يكمن الدور الأخلاقي للآباء والأمهات، كما هو الحال بالنسبة للمربين والموجهين والقادة والسياسيين حيث يتوجب على الجميع تجاوز حدود العطاء المعرفي إلى تأصيل أخلاقي يشمل المجتمع برمته. وباختصار ما يجب الاحتكام إليه هو تربية أخلاقية تتأصل في قلوب الأطفال والشباب والناشئة.

فالتربية الأخلاقية التي تتجه إلى الإنسان في جوهره الإنساني تشكل مرتكزا فعليا للتأثير في التكوين العقلي والذهني على أسس معنوية، وهذا بدوره يشكل مصدرا ثرّاً لنمو الشخصية الإنسانية وازدهارها كما يشكل مصدرا من مصادر السعادة والفرح الذي يتميز بطابع الديمومة والاستمرار.

ويمكن القول في هذا السياق بوجود ثلاث شروط أساسية في الحياة الإنسانية قادرة على التأثير في مختلف الشروط الأخرى للوجود، ويتمثل الشرط الأول في تحقيق درجة عالية من الأصالة الأخلاقية: وهذا يعني القدرة على ضبط النفس والقدرة على محبة الآخرين. أما الثاني فيتمثل في تأسيس عائلة متماسكة وسعيدة وأن يستمد الإنسان من عائلته هذه رأسمال أخلاقي مستمد من التجارب الأخلاقية والعاطفية للعائلة. **أما الثالث**: فهو تقديم الفائدة للمجتمع من خلال المواهب والإمكانيات التي نتمتع بها. والأمر الأكثر أهمية في هذا كله أن القيمة الأخلاقية المتمثلة في الحب الحقيقي هي التي تشكل القوة الحقيقية التي تدفعنا نحو تحقيق تلك الغايات الثلاثية.

فالوجدان، بوصفه لباب طبيعتنا الإنسانية، يشكل منطلق طاقتنا الأخلاقية وبوتقة تشكلنا الإنساني. ومن هنا فإن الومضة الأولى للتربية يجب أن تنطلق من الرغبة الحقيقية في مساعدة

الناشئة على تطهير قلوبهم وتشكيل حسّهم الأخلاقي من أجل تحقيق نضجهم الإنساني وصقل طباعهم البشرية على مبدأ القيم الأخلاقية.

ومن ثمّ تأتي الومضة التربوية الثانية التي تتمثل في تمكين الأطفال والشباب من تمثل القوانين الأخلاقية للسلوك من أجل بناء علاقة تواصل وتفاعل إنساني حقيقي مع الكون والآخر والذات. وهذه التربية التي تحضّ على آداب السلوك تفعل فعلها في إيقاظ القدرة على بناء علاقات جوهرية وحيوية حول الحب الحقيقي الممكن بين الآنا والآخر كما بين المجتمع والإنسان.

أما الومضة التربوية الثالثة فتأخذ مسارها في امتلاك ثقافة حقيقية ومعرفة أصيلة بالكون، ومن ثمّ العمل على بناء معرفة فعّالة بالتقانات والوسائل والإمكانيات المتاحة من أجل امتلاك مهنة وعمل تمكنان الفرد من مواصلة الحياة بشرف وكرامة.

هذه الأبعاد الثلاثة للتربية تشكل بوتقة حقيقية يمكن تبنيها في تشكيل الفرد للحياة في مجتمع أنهكته الحداثة والثورات المتلاحقة في مختلف الميادين. فثقافة الروح والقلب تشكل الأساس الفعلي لتجاوز التحديات الكبرى التي يواجهها المجتمع.

التربية على الحب:

ينبئنا الواقع بأن المجتمعات الإنسانية تتبنى بوجود تربية حداثية بهرم مقلوب يركز على عملية إعداد مهني متسارع محورها التكنولوجيا والمعلوماتية دون اهتمام كبير بالجوانب الروحية والأخلاقية للتربية. ومع ذلك فإن النظرة الحكيمة المتوازنة للتربية تعطي الأفضلية لتربية قائمة على ثقافة إنسانية وأخلاقية، وذلك لأن الثقافة الأخلاقية تشكل المرتكز الحقيقي للثقافة المادية والعقلية

ففن الارتباط بالآخر في موقع الحب الحقيقي يشكل حجر الزاوية في عملية تشكيل شخصية الطفل. والحب الحقيقي يرمز إلى الحياة من أجل الآخر دون غايات نفعية وشخصية. ومع هذا النوع من الحب في علاقات الناس بين الرجال والنساء تؤدي في نهاية المطاف إلى الإخلاص والوفاء قبل الزواج وأثناء الحياة الزوجية. وعندما ينطلق الحب من أساس أخلاقي فإن الإنسان يسلك دائما من أجل غايات سامية تتعلق بالآخرين الذي يقعون في دائرة المحبة.

فالكائن الإنساني يكتشف الحب الحقيقي عبر الأركان الأربعة للقلب: أولا، حب الآباء تعبيرا عن الوفاء لحبهم التضحوي الذي لا تحده حدود؛ ثانيا، حب الأصدقاء والأخوة والأخوات والزملاء؛ ثالثا، الحب الزوجي بين الأزواج، وأخيرا، حب الأبناء غير المشروط وهو حب تضحوي لا يضاهيه حب.

هذا الحب الرباعي يشكل منطلق بناء الشخصية الإنسانية والعائلة معنية في هذا المسار بعملية بناء هذا الحب الشامل وتعزيز أركانه في شخصية الطفل. فالآباء يرغبون في تعليم أبنائهم وتوجيههم وتشكيلهم وفقا لقيم الواجب والحب الأبوي، ومن هذا الحب الأبوي ينبع حب المعلمين والكبار. فحب الأبناء يؤدي إلى التفاني في خدمة العائلة والتضحية في سبيلها. وعندما يعمّ هذا السلوك في المجتمع فإن المرء يمكن أن يضحي بكل شيء من أجل وطنه ومجتمعه وهو وفقا لهذه الصورة يتحول إلى مواطن حقيقي. وعندما يتمثل الإنسان القيم الكونية فإنه في نهاية الأمر سيكون مستعدا بأن يضحي بنفسه من أجل الإنسانية.

والآباء يمكنهم أن يحققوا ثلاثة أهداف أساسية في تربيتهم العائلية: أن يكونوا آباء ومعلمين وموجهين حقيقيين في كل دور من هذه الأدوار. وهنا نجد بأن الحب الحقيقي هو أمر جوهري في هذه المستويات الثلاثة من الفعالية التربوية للآباء. والحب الحقيقي يكون هنا في أن يعطي الإنسان وأن ينسى عطاياه بلا حدود، وأن يستمر في العطاء دون أن ينتظر ردا على ذلك، مهما يكن ذلك الرد. ومثل هذا الحب نجده عند الآباء الذين يضحون بكل شيء من أجل أبنائهم دون رجاء أو مقابل. وهذا النمط من الحب يشكل منطلق الأبوة الحقيقي.

ولا ينقطع الدور الأبوي الذي يمكن أن يجد صداه لدى المعلمين الحقيقيين الذين يمكنهم أيضا أن يغدقوا حبهم الأصيل الشامل على تلامذتهم، ومن أجل تحقيق هذه الغاية يجب تأصيل أكثر القيم الأخلاقية أصالة ونبلا وشموخا وأن يكون الأب أو المعلم نموذجا إنسانيا أخلاقيا يلهم الآخرين من الأبناء والمتعلمين سمو القيمة الأخلاقية للحب والأنسنة.

وهذا الدور الأبوي يمكنه أن يتجلى في الحكام والقادة والمسؤولين الذين يتوجب عليهم أن يقدموا أنفسهم رمزا للعطاء والتفاني والمحبة الأبوية الصادقة لأبناء شعبهم، وأن يكونوا في مستوى المسؤوليات الكبرى التي تتعلق بحياة الشعب وأفراد المجتمع على نحو كلي.

فالمعلم، وبوحي من هذا النموذج الأخلاقي، يجب أن يكون معلما حقيقيا قادرا على توجيه تلامذته إلى الفضيلة، وأن يفيض بحب تلامذته كما يفعل الأب الحقيقي مع أبنائه. ولا بد للمعلم في هذا السياق من أن يكون قادرا بناء الثقافة الخلاقة في عقول الأطفال وأن ينير قلوبهم بالخير والعطاء والإيمان الشامل بالله والقيم الإنسانية. وهذا الأمر يتطلب منه أن يشعر بالمسؤولية وأن يسهم في بناء التكوين الجسدي والأخلاقي والنفسي والروحي للأطفال بوصفهم أمل المستقبل ونبض الحياة الإنسانية المستقبلية في المجتمع.

فالمجتمع المدني يستطيع أن يحقق نوعا من التكامل والتآلف بين جهود المؤسسات التربوية، ما بين الأسرة والمدرسة والمؤسسات التربوية الأخرى من أجل تحقيق النماء والتكامل الإنساني الأخلاقي في نفوس الأطفال والشباب والناشئة. وتأسيسا على هذه الرؤية يمكن للمجتمع المدني أن يفجر في ذاته ثقافة إنسانية روحية متدفقة بكل المعاني والقيم الأخلاقية السامية.

فالعالم يشهد، مع بداية القرن الحادي والعشرين، ولادة ثقافة عالمية جديدة تنادي بالسلام والوحدة الكونية، وذلك على غير ما شهدناه في القرن الماضي الذي شهد طفرة علمية وتكنولوجية واقتصادية هائلة بكل المقاييس والمعايير. فالعصر الذي نعيش فيه يتميز بالحاجة المتنامية إلى العلاقات الإنسانية المفعمة بمعانيها الروحية والإنسانية، ومثل هذه الحاجة تفرض نفسها في مختلف ربوع هذا الكون بامتداداته الجغرافية والإنسانية.

لقد علمنا القرن الماضي بأن التقدم العلمي والتكنولوجي لا يكفي بمفرده لبناء شروط السلام والتناغم الإنساني والسعادة الإنسانية الحقيقية. وما نحتاجه اليوم من أجل عالم أكثر أنسنة وعدلا وسعادة يتمثل في رؤية جديدة كونية محورها القيم الأخلاقية والإنسانية. وهذه الرؤية الإنسانية الجديدة ضرورية جدا من أجل بناء كيانات إنسانية جديدة خلاقة، وخلق عالم يفيض بالأنس والجمال الأخلاقي، فيشكل المهاد الحقيقي لمشاعر السلام والتكامل والإحساس بوحدة الوجود والانتماء الإنساني إلى أرومة المحبة والتواصل والتسامح والسلام. ومثل هذا العمل يتطلب منا البحث الدائم عن القيم الأخلاقية والروحية، كما يتطلب منا استقصاء التكامل الأخلاقي الأفضل الممكن ما بين القيم الجديدة والقيم والتقليدية، **ما بين قيم الحاضر وقيم المستقبل ما بين قيم الشرق القديم وقيم الغرب المحدثة. ومن دائرة هذا التكامل بين هذه القيم الكونية يمكننا توليد قيم جديدة تتسم بالروعة والجمال وتعبر عن روح العصر وحاجاته الروحية والإنسانية.**

ومن أجل تحقيق هذه الطموحات والأمنيات الإنسانية الخلاقة يجب علينا أن نوفر للشباب والناشئة **أجواءً أسرية مفعمة بالحب فيّاضة بالمعاني** والحب الحقيقي، أجواء قادرة على تشكيل وعي الشباب وضمائرهم، وتسديد خطاهم نحو الحق والخير والجمال. **فالطهارة في القلب والقوة في الروح تشكلان الأساس الحيوي لبناء مستقبل آمن وأخلاقي للمواطنة.** فالوعي الإنساني الحقيقي نزّاع إلى فعل الخير واكتناه الجمال والبحث عن الدلالة والمعنى. **ولكن الوعي نفسه في فضاء أخلاقي مدمر لا يمكنه أن ينطلق إلى غايته الكونية العليا. وهنا يجب علينا جميعا آباءً ومعلمين ومربين وسياسيين تحمل المسؤولية من أجل تطهير الوعي وتنقية الضمير وتحرير الوعي والمعرفة الإنسانية من أدرانها وأوجاعها؛ كما يجب علينا أن نساعد أبناءنا على تبني هذا التوجه الإنساني وتمثل غاياته العليا.** فالشباب يتطهرون وينضجون في أجواء المحبة الحقيقية وينهلون من معين قوتهم الروحية من الوسط الاجتماعي الذي يكتنفهم. وتلك هي سمة أساسية في المجتمعات المدنية المتحضرة التي تتميز بطابعها الروحي.

أولوية التربية الأخلاقية:

تتضح أهمية بناء التكوين الروحي للإنسان عندما نتفحص طبيعة الكائن الإنساني نفسه. فالإنسان يتكون من جانبين أساسيين: الجسد بوصفه التشكيل الفيزيائي للوجود أولا، ثم الجانب السيكولوجي والمعرفي ثانيا. **فالإنسان ينطوي على جانب غير مادي نطلق عليه النفس أو الروح أحيانا أو الطبع أحيانا أخرى. وهذه الثنائية في تكوين الإنسان تتطلب نوعين مناسبين من القيم. فالجسد عالم الرغبات والميول والغرائز والحاجات البيولوجية.** فهناك الحاجات الصحية مثل الحاجة إلى الغذاء والراحة. وهذه الحاجات تدفع الإنسان إلى البحث عن أفضل السبل لتلبيتها وإشباعها وتأمين الراحة والطمأنينة.

أما فيما يتعلق بالحاجات الروحية فإن إشباعها رهين القيم الأخلاقية والروحية مثل: الحقيقة والجمال والخير والحب. وهذا يعني أن البحث عن هذه القيم وتمثلها يؤدي إلى حالة من الإشباع والرضا الداخلي لدى الإنسان.

كثير من الناس يعتقد أن البحث عن القيم المادية وتمثّلها يحقق نوعا من الرضا الداخلي، ومع ذلك لا يمكن للإنسان أن يرضى بسعادة زمنية مؤقتة. وهذا يعني أنه لا بد من الاهتمام بالجانب

الروحي الذي لا يمكن إهماله بأي حال من الأحوال. وهنا يمكن دور التربية التي يتوجب عليها أن تأخذ بعين الاعتبار تلبية الاحتياجات الثنائية للإنسان احتياجات الروح واحتياجات الجسد. وتأسيسا على هذه الرؤية التربوية المتعلقة بضمان حاجات الروح والجسد يمكن للتربية أن تأخذ مسارها الصحيح في تربية الأبناء والناشئة تحقيقا لسعادتهم الحقيقية التي تتميز بطابع الديمومة والاستمرار.

ويمكن القول في هذا السياق: إن التربية تشتمل على مسارين أساسيين: المسار الأول هو المسار الأخلاقي الذي يتقصى القيم الروحية الأخلاقية مثل الحق والخير والجمال والحب ويعمل على تمثلها بوصفها البوتقة الأساسية لبناء الشخصية الإنسانية ؛ أما المسار الثاني فيتمثل في النزعة المادية التي تعنى بإشباع القيم المادية لدى الإنسان (التعليم المدرسي والجامعي والتأهيل التقني المهني والتربية الفيزيائية والرياضية)، وهذا التعليم يسعى إلى تحقيق أهداف عملية مهنية من أجل ضمان إشباع الحاجات المادية لدى الفرد.

وبالمقارنة تبدو التربية الأخلاقية أكثر أهمية وخطورة من التربية المادية والعملية وهي أي التربية الأخلاقية تعمل في جوهرها على تحقيق التوازن بين الروح والجسد. فالروح يجب أن توجه الجسد وتنظم الميول الطبيعية والغرائزية في الإنسان، وعلى هذا المنوال فإن التربية الأخلاقية معنيّة بضبط وتوجيه المعارف والخبرات العملية كما المواهب والقدرات في المسارات الأخلاقية الأمثل. وإذا لم يحدث هذا التوجيه فهذا يعني أن الإنسان يعيش حالة عدمية أنانية مفرغة من كل المضامين الأخلاقية والإنسانية. وهنا يجب أن نعترف بأن المجتمع يوظف تقاناته ومعارفه بطريقة مادية وأنانية وهنا تكمن إحدى أهم المعضلات الأخلاقية في المجتمعات الحديثة.

فالتربية تعمل في جوهرها على نقل المعرفة من جيل لآخر، وهدف التربية الجوهري يكمن في تمكين الإنسان من تحقيق طموحات إنسانية وأخلاقية، وهنا يجب على التربية أن تؤدي المهمة الصعبة التي تتمثل في تحويل المعارف الإنسانية من جهة ، والعمل على تحقيق القيم العليا للثقافة الأخلاقية من جهة أخرى . فالتربية تعمل على تأصيل القيم الأخلاقية وتمكين الناشئة من الإحساس بالمسؤولية من أجل التحضير لمستقبل المواطن والمواطنة حيث يتمكن كل فرد من تمثل حقوقه وواجباته على نحو أمثل في دائرة المجتمع والحياة الاجتماعية. ويمكن اختصار هذه المسؤولية التربوية بالقول: إن التربية معنية في جوهر الأمر بتحقيق النمو العقلي والأخلاقي في دائرة من التوازن والتكامل بين متطلبات الروح والجسد.

الاتجاهات المعاصرة في التربية الأخلاقية :

تستحق التربية الأخلاقية في العالم المتحضر بعض التأمل والنظر من منطلق أن الحضارة الغربية تشكل منطلق الحضارات العالمية المعاصرة. والسؤال المطروح هنا: ما الاستراتيجيات التربوية التي تعتمدها الحضارة الإنسانية المعاصرة في مجال التربية الأخلاقية؟ وما هي المخططات التربوية التي تتبناها الدول المتقدمة في عملية البناء الأخلاقي للشباب والناشئة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين؟ وهذه التساؤلات تتطلب دراسة لبعض التيارات التربوية الحادية في الغرب التي تؤثر فعليا في كثير من الأنظمة التربوية في العالم.

سقوط القيم التقليدية :

شهدت القيم التقليدية في الغرب تراجعها مع بداية السبعينات تحديدا حيث لعبت التربية الجديدة دورا حيويا في تدمير الأنساق التقليدية للقيم الغربية. ففي هذه المرحلة من التي عرفت بمرحلة الثورة الجنسية وانتشار المخدرات عمل الشباب على مناهضة كل أشكال السلطة ورفض كل القيم التي ترتبط بها. وضمن هذه الموجة الرافضة للقيم أسقط الشباب مفهوم القيم المطلقة ورفضوها وأحلوا مكانها مفهوم القيم النسبية الأخلاقية. وفي دائرة هذا الرفض الشامل للأنظمة الأخلاقية القديمة أصبحت النزعة الفردية هي المعيار الذي يُحتكم إليه في المستويات الأخلاقية. وفي عمق هذا التوجه الفردي تقدمت الحقوق الفردية على مبدأ المسؤولية الفردية وتقدم الحق الفردي على الواجب الإنساني في هذه المجتمعات. وخرجت قيم التضحية والواجب والقداسة من قاموس القيم الجديد وتحولت الثقافة الشعبية إلى نموذج ثقافي للشباب في تلك المرحلة.

واستطاع هذا التحول العنيف في منظومة القيم والتصورات أن يحدث اهتزازا كبير للمعايير التربوية والأنظمة التربوية التي كانت قائمة. وفي دائرة هذا التموج الكبير في المعايير اتخذ عدد كبير من المربين موقفا محايدا من القيم من منطلق أنه لا يحق لهم فرض قيمهم الخاصة على تلامذتهم. فلكل الحق في أن يتبنى قيمه الخاصة وعلى الجميع واجب احترام الآخر وما يؤمن به من قيم فردية خاصة. وقد فرض هذا التوجه أجواء الريبة والشك وعدم الثقة في داخل الصفوف

المدرسية حيث فقد المعلم دوره بوصفه نموذجا أخلاقيا وموجها تربويا واقتصر دوره على صورة موجه بسيط يؤدي دوره المحدد في عملية التعلم.

وقد أثرت هذه التوجهات الجديدة في تبني مناهج تربوية جديدة مثل منهج التعريف بالقيم (la clarification des valeurs) الذي انطلق في عام 1966 على أثر صدور كتاب لويس راس (Louis Raths) بعنوان التعليم والقيم (*Values and teaching*). **وقد تضمن هذا الكتاب دعوة تربوية للمعلمين إلى رفض التدخل في عملية فرض القيم الأخلاقية على الطلاب وحثهم بدلا من ذلك على توضيح موقفهم من قضية ما تتميز بالخصوصية.** وفي دائرة هذا التوجه الجديد للقيم بدأت فكرة تقدير قيم الآخر مهما تكن على أنها أمر يجب أن يحظى بالتقدير والاحترام. ومن هذا المنطلق بدأ تترسخ عملية رفض للتوجهات التربوية التي تعطي للكبار الحق في فرض قيمهم الأخلاقية على الأطفال والناشئة ويشمل هذا الرفض رفضا لكل محاولة تربوية يحاول فيها المعلمون والمدرسون التأثير في النظام القيمي والأخلاقي لدى الطلاب أيا كانت القيم والمبادئ الأخلاقية التي توجه هذا التوجه. فالخيارات الأخلاقية والقيمية يجب بحسب هذا التوجه التربوي الجديد أن تبقى مسألة تفضيلات فردية وقرارات شخصية تنبع من قناعات الفرد ورؤاه الخاصة به.

ويمكن أن نسوق بعض الأمثلة التي تتعلق بعملية توضيح القيم: المعلم يسأل إحدى طالباته قائلا: إيزابيل ما رأيك بالحب قبل الزواج؟

إيزابيل: اعتقد بأن الزواج علاقة مقدسة ويجب على الرجال والنساء احترام هذه العلاقة وعدم إقامة أي علاقة جنسية قبل الزواج.

المعلم: جيد إيزابيل.

المعلم: جون ما رأيك بذلك؟

جون: بالنسبة لي أنا أرى أنه يجب على المرء أن يكون حرا في إقامة علاقة قبل الزواج ولاسيما إذا كانت العلاقة القائمة بين الطرفين عاطفية.

المعلم: جيد جون لقد وضحت القيمة التي تراها في هذا الأمر.

وهذا الموقف يعني أن احترام قيم الجميع وتقدير رأي الجميع يعني أن المدرسة لا تعلم قيما ولا تريد أن ترسخ أخرى بل تقوم بتوضيح آراء الآخرين وأفكارهم ومواقفهم بكل بساطة. وهذا الأمر

يعني أن عددا كبيرا من الخريجين من المدارس والجامعات وجدوا صعوبة كبيرة في التمييز بين الخير والشر وذلك لأن الأمر متروك لهم ولتجاربهم الخاصة وقناعاتهم الفردية دون تأثيرات خارجية تأتي من المعلمين والمناهج.

وقد أدت هذه المنهجية التربوية إلى تأسيس النزعة النسبية في التربية وإلى تدمير المعطيات التقليدية للتربية الأخلاقية التي كانت سائدة في مراحل سابقة. وترافق ذلك التوجه إلى رفض القيم التقليدية بوصفها غير واقعية أو عملية وخارج دائرة الموضة الجديدة للعصر الجديد. ويتضمن هذا الاتجاه رفضا للسلطة الأبوية وللدور الكبير الذي يؤديه الآباء في عملية التربية الأخلاقية للأبناء. فالمدرسة وفقا لهذه المنهجية بدأت تحضّ التلامذة والطلاب على مناقشة آراء الآخرين ونقدها مهما يكن مصدرها والسلطة التي تصدر عنها.

وقد شهدت هذه المرحلة موجات جديدة من التربية الأخلاقية التي تدعو إلى رفض كل أشكال السلطة التقليدية وما ينجم عنها من تصورات ورؤى وأفكار. وهذه الموجة الجديد كانت تشكل سعيا تربويا شاملا لتنمية الروح النقدية عند التلاميذ والأطفال والناشئة. كما أنها كانت تدفع الطلاب إلى تحدي مختلف التقاليد والقيم السائدة التي تفرض نفسها في الساحة الفكرية في السبعينات من القرن الماضي. والهدف من هذه النزعة الجديدة العمل على تشجيع التنوع والتعدد القيمي والفكري في المجتمع رفضا لكل أشكال التسلط والشمولية والرأي الواحد القائم على التعصب والانغلاق. وقد فرضت هذه الأجواء التربوية الجديدة نمطا جديدا من المناقشات الحرة حول مختلف القضايا والمشكلات والتحديات التي كانت تواجه الشباب والمجتمع في تلك المرحلة أي في السبعينات من القرن الماضي.

وكان هذا النموذج التربوي مناسبا للعصر الحديث ومعارضا للتقليد القديم الممثل لزمن الهيمنة الأبوية والسلطوية المباشرة. ففي المجتمعات الديمقراطية المعاصرة امتلك الشباب الرغبة في مناقشة قضايا مجتمعهم وهذا ما كان متوقع منهم. وكان عليهم أيضا أن يأخذوا موقفا مناسبا من الأسس التربوية القائمة وأن يعملوا على تربية أنفسهم دون الاكتفاء بعملية التشبع الصرف بالمعلومات والمعارف المدرسية الجامدة.

ولكن ومن أجل تحقيق النجاح لهذه التوجهات التربوية الحديثة توجب على روادها أن يمارسوها في أجواء أخلاقية، وكانوا في أمس الحاجة إلى الأطر الأخلاقية لهذه التربية الجديدة. وهنا يمكن

القول بأن هذه التربية الجديدة يمكن أن تتحول إلى تربية كارثية ما لم تعمد بالقوانين والقيم الأخلاقية الواضحة، وهذا يعني أن يجب التمييز، على الأقل، بين القيم المعادية للمجتمع والقيم البناءة، فوضع القيم البناءة والهدامة على قدم المساواة أمر ينذر بالخطر والكارثة.

بعد أربعة عقود على انطلاق التربية القائمة على الحرية القيمية اكتشف عدد من المفكرين والمربين عدمية هذه الحرية الأخلاقية. لقد أوضح هؤلاء المفكرون أن تشجيع الشباب على التفكير النقدي والتعبير بحرية عن القيم التي يؤمنون بها لم يؤد في النهاية إلى تشكيل الروح الأخلاقية لديهم، ويعود ذلك إلى فقدان المعايير الأخلاقية والمرجعيات القيمية التي يجب الاستناد إليها في عملية البناء القيمي والأخلاقي للناشئة والشباب. فالتربية الحرة أدت في نهاية الأمر إلى الابتذال الأخلاقي والانحطاط في القيم , فالتربية الأخلاقية الحرة تتعامل مع الناشئة بوصفهم راشدين يمكنهم التعبير عن رأيهم وقيمهم بحرية، وهذا الأمر يخالف الواقع التربوي للأطفال الذي لا يمتلكون في جوهر الأمر نضجا أخلاقيا أو ثقافيا يمكنهم من تحديد قيمهم واتجاهاتهم الأخلاقية. وقد تجاهلت هذه التربية أن الأطفال والصغار والناشئة في حالة ضياع أخلاقي وأنهم يحتاجون إلى المساعدة من أجل فهم البيئة الأخلاقية التي تحيط بهم واختيار القيم التي تناسبهم.

ويمكن القول في هذا السياق أن التربية الأخلاقية التقليدية قد فقدت مصداقيتها وتأثيرها في العالم بتأثير مجموعة من العوامل والأسباب، أهمها:

- الحضور المظفر للنسبية الأخلاقية التي فرضت قانونية الحياد الأخلاقي في العملية التربوية.

- هيمنة التعددية في المجتمع والثقافة الحديثة التي أدت إلى رفض القيم الكونية والشمولية.

- الحذر المتنامي من خطر الأحادية الأخلاقية التي فرضتها العقيدة الدينية في المدارس التي تبث قيما أخلاقية شمولية وحيدة الاتجاه لتشكل نموذجا أخلاقيا على نمط واحد.

- اتفاق عدد كبير من المثقفين والناس على قبول التعددية بوصفها الحلّ الأمثل لقبول التنوع الكبير القائم في الحياة الاجتماعية والثقافية، ومن غير ذلك فإن المجتمع سيتجه إلى التعصب والجمود والانغلاق الفكري والمذهبي.

التربية التهذيبية الجديدة:

إزاء وضعية الاغتراب الأخلاقي والضياع الذي أفرزته التربية الأخلاقية الحرة، وفي مواجهة التذمر الكبير ومشاعر السخط المتعاظمة تجاه التربية الأخلاقية الحرة، انبرى عدد من المفكرين لمهاجمة الأوضاع التربوية القائمة وتوجيه النقد إلى مذهب التربية الأخلاقية الحيادية السائد في المدارس الحكومية العامة. **واتجه عدد كبير من الأفراد إلى ترك المدارس الحكومية واللجوء إلى المدارس الخاصة التي تكيفت مع الحاجة إلى تربية أخلاقية تهذيبية جديدة، واستطاعت هذه النزعة الجديدة في التربية أن تفرض نفسها في المدارس الحكومية في التسعينات من القرن الماضي.**

ويمكن في هذا السياق تعريف التربية الأخلاقية التهذيبية أما يطلق عليها بتربية الطباع (L'éducation du caractère) بأنها: "**نسق من الجهود المنظمة التي تهدف إلى بناء الشخصية على أساس من القيم والفضائل الأخلاقية الضرورية من أجل الفرد والمجتمع** "[3]. وقد شهدت هذه التربية انطلاقتها الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية التي تبنت برامج تربوية أخلاقية منظمة قائمة على مبدأ التربية التهذيبية الجديدة. وهناك تقديرات بأن ثلثي المدارس الأمريكية قد بدأت تتبنى هذا المنهج الجديد في التربية الأخلاقية.

القيم الأخلاقية الكونية:

تتبنى التربية التهذيبية الجديدة القيم الكونية والشمولية، وهذه القيم العليا تمكّن الفرد من القدرة على تحديد المسالك الأخلاقية من حيث هي خيّرة أو شريرة، وتدفع أصحابها إلى فعل الخير، وهذا يعني أن هذه القيم تعرف بمسالك الخير وتدفع الفرد إلى السير في دروبه، وهذا يعني أنها تمتلك طاقة تنويرية من جهة وطاقة عملية أي: أنها تحض الأفراد على النشاط والعمل بمقتضى التوجهات الخيّرة لهذه القيم الإنسانية الكونية العليا.

---

[3] - Vincent (Philip), conférence à l'école de Canandaigua (New York)

والتربية على القيم العليا تركز على قيم الشرف والحق والخير والعدالة والحقيقة والشرف والمسؤولية، وهذه القيم تمتلك في ذاتها على طاقة إلزامية. فالقيم توجهنا إلى ما يجب علينا أن نفعله سواء أكانت لدينا الرغبة في ذلك أو إذا لم تكن. وتتميز هذه القيم عن غيرها بأنها تفرض على المرء سلوكاً أخلاقيا بالضرورة. فالاستماع إلى الموسيقى على سبيل المثال يشكل قيمة جمالية ولكنها غير ملزمة ولا تتصف يكونها خيرة أو شريرة.

وهذا يعني أن القيم الأخلاقية تصنف إلى قيم كونية عامة شمولية وإلى قيم جزئية لا تتصف بعموميتها أو شموليتها. فالقيم الشمولية تتمثل تتمثل في قيم: الحرية، والمساواة، والشجاعة، والكرم، والحق، والخير، والعدالة، والشرف، والكرامة، واحترام حق الحياة والمحافظة عليها؛ وهي قيم يشترك فيها جميع الناس دون استثناء، كما أن جميع الناس يقدرونها ويعلون من شأنها ويهتدون بها في مسيرة حياتهم الإنسانية، وذلك لأنها ببساطة تعبر عن جوهر الإنسان وعن أهليته الإنسانية الأشمل.

والسؤال هنا ما المعايير التي يمكن أن تعتمد للتعرّف على القيم الشمولية؟:

1- القيمة الشمولية قيمة تبادلية بمعنى أنها تريد للشخص أن يعامل الآخرين كما يحب أن يعاملوه. وهذا يتمثل في قول الإمام علي كرم الله وجهه: "اجعل نفسك ميزانا للحق بينك وبين الناس فأحب لهم ما تحبه لنفسك واكره لهم ما تكرهه لها ". ومثال ذلك احترام حق الملكية لأن الإنسان لا يريد لأحد أن ينتهك ملكيته بالمقابل.

2- قاعدة التعميم والتي تتمثل في أن يفعل الناس الخير لأنه خير.

3- قاعدة البداهة الأخلاقية: فالقيم الكونية تنبع من صميم الوعي الإنساني وتصدر صدورا عفويا. حتى الأطفال يدركون بالبداهة والفطرة القيم الأخلاقية الكونية العليا التي ترمز إلى الحق والعدالة والخير، فالطفل الذي يضرب آخر في ساحة المدرسة سرعان ما يبرر فعلته بالقول إن الطفل ألآخر هو الذي بدأ الضرب أولا، وهو يدرك عفويا بأن البادي أظلم وإنه يستحق العقاب أكثر.

4- تتميز القيم الكونية بسمتها الزمنية على المدى الطويل، وهي تؤكد على مزايا أفضل، فالقول المأثور بأن الصدق هو الأفضل دائما وحبل الكذب قصير، وهذا المبدأ يعلمنا أيضا أن الصدق على المدلا البعيد تكون له آثار جيدة أما الكذب فقد تكون نتائجه مدمرة ووخيمة.

5- القيم الكونية العليا موجودة في مختلف أرجاء المعمورة كما في كل الأزمنة وفي مختلف الثقافات ومنها كما اشرنا فضائل: الصدق والمحبة والأمانة والشجاعة والواجب.

6- من شأن القيم الكونية أن تعزز في الفرد السجايا والسمات الأخلاقية وأن تجعلها في الإنسان طبعا وسجية عفوية.

فالمجتمعات الإنسانية مهما اختلفت وتباينت تجتمع على عدد من القيم العليا لأن هذه القيم تتأصل في الطبيعة الإنسانية نفسها. فالتضحية كقيمة المخاطرة بالنفس من أجل إنقاذ طفل يغرق هي قيمة كونية يجري تبجيلها في الغرب والشرق وفي مختلف الثقافات الإنسانية في المجتمعات القديمة والحديثة في المجتمعات الصناعية والزراعية في المجتمعات البدائية والمتحضرة. وكأن هذه القيمة أصيلة في الطبع الإنساني وتعبر عن أعمق ما في طبيعته من جمال وسمو أخلاقي.

وتشكل هذه القيم الأخلاقية الكونية منطلق التربية الأخلاقية التطبيعية الجديدة. ومن منطلق هذه القيم الكونية استطاعت التربية الأخلاقية الجديدة أن تواجه الانتقادات التي تدفقت من أنصار التربية الأخلاقية النسبية، فالقيم الكونية تشكل الأساس الحيوي للتربية الأخلاقية في المؤسسات التعليمية الدينية.

أهداف التربية الأخلاقية:

كيف يمكننا تحقيق التوازن الخلاق بين جناحي التربية الأخلاقية الروحية والجسدية من أجل بناء الشخصية الإنسانية وتحضيرها للحياة المهنية. لقد أوضحنا أن القيم الأخلاقية يمكنها أن توجه التربية الأخلاقية نحو التكامل والتوازن بين الروحي والجسدي أو بين العاطفة والعقل.

إنه لمن البداهة بمكان أن نقول بأن التربية الأخلاقية تبدأ منذ الولادة ولا تتوقف حتى نهاية الإنسان. وفي هذا المسار يتوجب على التربية الشكلية المؤسساتية أن تحقق توازنها مع مختلف أنواع التأهيل والتدريب في الوسط العائلي وخارجه أيضا. وهذا التصور يشجع المربين والآباء والمعلمين على أداء دورهم الأخلاقي. فالتربية الأخلاقية التهذيبية كما يقول توماس ليكونا Thomas Lickona, "تتجه إلى تحقيق هدفين أساسيين: مساعدة الشباب على أن يكونوا أذكياء وعقلاء، وأن

يصيروا خيرين "[4]. ومما لا شك فيه أن التربية الأخلاقية التهذيبية تسعى إلى إعداد أناس مؤهلين وقادرين على تقديم أشياء كثيرة للآخرين.

ويمكننا في هذا السياق تصنيف التربية الأخلاقية التهذيبية إلى ثلاثة مستويات أساسية:

- **أهداف فردية وتتمثل في إيصال الفرد إلى نضجه الأخلاقي وكماله الإنساني.**
- **أهداف اجتماعية وتتمثل في تمكين الفرد من بناء علاقات أخلاقية وعاطفية مع الآخرين بدءا من الأسرة التي ينتمي إليها.**
- **أهداف مهنية وتتمثل في تمكين الفرد من أن يصير مواطناً منتجا ومثقفا وفاعلا في الحياة الاجتماعية للمجتمع الذي ينتمي إليه.**

1- ازدهار الشخصية وكمالها:

تحقيق الازدهار والتكامل في الشخصية، يعني، من حيث المبدأ، تهيئة القوى الداخلية للفرد نحو السلوك الصحيح. وهذا يمثل مختلف القوى والاتجاهات والعادات التي تعمل على تحقيق المرونة والبساطة في الفعل الأخلاقي والممارسة الإنسانية القائمة على نسق القيم العليا. وفي هذا المسار فإن كل فعل أخلاقي وكل نجاح قيمي يحمل الطابع الأخلاقي للفرد. ويمكن الاستدلال على الطابع الأخلاقي للفرد من الآثار الناجمة عنه، فالطبع الجيد يتمثل في حب الآخرين وحب الإنتاج والإنجاز في المجتمع، وهذا يعني أن الطبع الأخلاقي هو عماد العملية الأخلاقية للفرد برمتها.

عندما نصف فردا ما بالقول له "إن طبعه جيد" فهذا يعني أنه يمتلك قلبا طيبا. فالقلب إذن يقع في عمق الشخصية الإنسانية ويمثل مركز القيمة الأخلاقية فيها. وينبني على هذا أن القلب يشكل منبعا لكل الفضائل الأخلاقية في الإنسان ولاسيما العلاقات الإنسانية مع الآخرين. فالقلب يمنحنا القدرة على الحب والتعاون والتضحية والفرح كما يمنحنا مختلف المشاعر الإنسانية

[4] - . Lickona, (Thomas), *Educating for Character: How Our Schools Can Teach Respect and Responsibility,* Bantam, New York, 1991.

السامية والخلاقة. فالحب والعلاقات بين الناس يشكلان حاجات إنسانية لا تقل أهميتها عن الحاجة إلى الطعام والسكن.

فالحب ينتسب إلى أرومته الأخلاقية لأنه يشكل مصدر العلاقة الإنسانية مع الآخر، فالإنسان يضحي ويعطي ويموت من أجل الحب. ونحن لا نستطيع أن نحقق ذواتنا إلا من خلال علاقتنا بالآخرين وهذا الفعل أخلاقي في جوهره وطبيعته. وفي بحثنا عن الحب فإن قلوبنا ستكون مفعمة بالسعادة إذا كان هذا الحب يقع في منارة الأخلاق والقيم. والقلب يمتلك قانونية نمائه الخاصة التي تبدأ منذ مرحلة الطفولة، ومن خصائص نموه أنه لا ينمو بطريقة آلية كما هو حال الجسد، بل يشكل حقلا إنسانيا خاصا يحتاج إلى أن يصقل وينمى ويتشكل بالحب ومع الحب ومن أجل الحب الكوني. والقلب يحتاج في عملية نمائه إلى التجارب الإنسانية الخلاقة فلا يمكن للقلب أن ينمو من غير تجربة الحب التي تنسج له علاقته مع الكون الخارجي أي مع الآخر. وعندما يثقف القلب ويصقل يأخذ هيئة أخلاقية ويتحول إلى طبع أخلاقي خيّر على الأغلب.

ومن أجل تنمية القلب بالحب وصقله بالقيمة الأخلاقية فإن العائلة تمثل البوتقة الساسية لعملية نمائه وازدهاره، ويمكن للمدرسة أن تلعب دورها في عملية بنائه وصقله على الحب والخير والعطاء. وهنا يمكن أن نتحدث عن تأثير المعلم في عملية نمو المشاعر الإنسانية والعاطفية عند الأفراد. وهذا التأثير الخلاق يتمّ جوهريا عندما يغدق المعلم حبّه الحقيقي على تلامذته وطلابه دون حدود أو قيود.

فالنضج الأخلاقي الأمثل يكون فعلياً عندما يستطيع الفرد تكوين علاقة محبة صادقة مع الآخرين وأن يعيش من أجلهم. ومثل هذا النضج الذي يوحد بين الكلام والفعل يمكّن الإنسان من مقاومة الغرائز الأنانية الأولية وأن يضحي بها من أجل الآخر والحق والخير والسلام. فكثير من الناس يعرف ما حق وخيّر ويتحدثون عنه ولكنهم لا يطابقون بين الفعل والقول بين المعرفة والعمل، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه النفاق والمنافقة والزيف الإنساني. ومن صلب النضج الأخلاقي أن يعيش الإنسان في وفقا كامل مع القيم السامية الخلاقة التي ارتضاها لنفسه من أجل بناء نفسه وشخصه على مقياس السمو الإنساني والأخلاقي. وهنا يتوجب على المعلمين والآباء والمربين أن يؤدوا دورهم التربوي بوصفهم نماذج أخلاقية يُحتذى بها وأن يشكلوا من ذواتهم وسلوكهم مرجعية أخلاقية يهتدي بها الأبناء والأطفال والناشئة.

فالمهمة الأولى للتربية الأخلاقية تكون بالعمل على تنمية القلب الإنساني من أجل بناء شخصية الفرد على مبدأ الفضيلة في مختلف التجليات الإنسانية للفعل الأخلاقي في المستقبل. فثقافة القلب تتمثل في بناء الطبع الأخلاقي الناضج والخيّر. وهذه الخطوة الأولى من التربية التي تعنى بالقلب والمشاعر تشكل منطلقا إلى الخطوات التربوية الأخلاقية اللاحقة.

2- بناء العلاقات المتوازنة:

تتجسد المهمة الثانية للتربية في هدفها الثاني الذي يتمثل في تأصيل العلاقة بين الأخلاقية بين أفراد المجتمع. فالحب لا يمكنه أن ينفصل جوهريا عن الأخلاق ولاسيما أخلاق العلاقة مع الآخر. فالحب يعطي الإنسان إمكانية واسعة في بناء علاقات إنسانية متوازنة وخلاقة. فالعائلة المتحابة والمتوازنة تشكل هدفا أخلاقيا تسعى إلى تحقيقه التربية الأخلاقية.

ومن هنا يمكن القول إن تعليم مبادئ السلوك ومعايير التصرف يشكل نواة الفعل التربوي الأخلاقي. والطبع الأخلاقي يتشكل من خلال الممارسة الأخلاقية واحترام المعايير وآداب السلوك الأخلاقي بصورة مستمرة دون قطيعة أو انقطاع. والتربية الأخلاقية تقدم لنا الأسس المرجعية لتوجيه السلوك وبناء العلاقات مع الآخر على نحو أخلاقي. وفي هذا المستوى من التربية الأخلاقية يتوجب على الفرد أن يتمثل القوانين والمعايير الأخلاقية في السلوك والعمل والتفكير. والقاعدة الذهبية في هذا المجال تكمن في المبدأ الذي يقول: "تصرف مع الآخرين كما تريدهم أن يتصرفوا معك "، وهو المبدأ الذي يشكل مضمون وجوهر المرحلة الثانية من التربية الأخلاقية.

ففي العائلة يتوجب على الفرد أن يتصرف أخلاقيا بطريقة يحددها وضع الفرد في العائلة وموقعه في نسق علاقاتها وبنيانها: الأخ الأكبر، الأصغر، الأم، الأب، الجدة. وهذا التصرف يجب أن ينحو على منوال العلاقة التضحوية وعلى مبدأ المسؤولية في دائرة التكامل مع مختلف الأدوار العائلية، وهذا يعني المحافظة على قيم الإخلاص والوفاء والمحبة والاحترام لتحقيق التكامل الأخلاقي والإنساني بين أفراد المجموعة العائلية.

فالمدارس المعاصرة تتحمل عدداً كبيراً من المسؤوليات وتشتمل على شبكة واسعة من العلاقات التربوية والإنسانية. والقاعدة التي يجب على المدرسة أن تنطلق منها تكون بتحقيق درجة

عالية من التوازن التربوي مع الأسرة. فالتربية على المبادئ الأخلاقية تتم عبر نسق من الفعاليات التربوية المستمرة التي توجه السلوك وتبني الاتجاهات وتؤسس للآداب العامة.

وتشتمل هذه التربية على فن بناء التوازن الأخلاقي في نسق العلاقات القائمة في دائرة الحياة اليومية. وهذا يعني أن الفرد يتعلم عبر هذه التربية متى وكيف يتصرف إزاء الآخر في مختلف المواقف الحياتية؟ والشخص المثقف أخلاقيا يستطيع وبسهولة كبيرة أن يتفاهم ويسلك مع الآخرين حتى وإن كانوا مختلفين وإياه في أشياء كثيرة.

فالمبادئ الأخلاقية ليست غاية بذاتها بل هي وسيلة تهدف إلى بناء علاقات إنسانية خلاقة وتحقيق التوازن في بنية المجتمع. فقطع مسافة ما من مكان إلى آخر عبر سيارة سريعة وحديثة ليس مؤكدا أو مضموناً إلا باحترام إشارات المرور في الطريق. فالعلاقات العائلية تؤدي دورها في تحقيق التوازن عندما يتم ذلك في إطار احترام القواعد الأخلاقية وفهمها والسلوك بموجبها. ففي الأسرة التي تتسم بالطابع الأخلاقي ينمو الحب والتراحم والتناغم بين أفراد الأسرة ويشكل هذا المدّ الأخلاقي منطلقا للتفاعل الأخلاقي مع المجتمع.

فالتربية الأخلاقية تحقق التوازن بين المحبة والمبادئ الأخلاقية. فعندما يتفاعل الإنسان مع الحياة على مبدأ المحبة ويراعي المبادئ والقيم يحقق أعلى درجة من التوازن الأخلاقي الخلاق. فالحب يعني في النهاية الانشغال بالآخر والتفاعل الوجداني معه على مبدأ التفاهم والتواد والتراحم. أما القواعد الأخلاقية فتبدو إلى حد ما صارمة مثل العدالة والحق والشرف والكرامة. وتحقيق هذا التوازن يبدو صعبا بين مطالب القلب ومطالب العدالة ولكن التربية الأخلاقية الأصيلة تستطيع تجاوز التناقض وتحقيق السلام بين المبادئ الأخلاقية الصارمة والقيمة العاطفية للحب والعاطفة الإنسانية الجياشة.

فعندما يغذي الحب قلب الطفل فإنه يمكنه من تذوق نبل المشاعر ويجعله أكثر أصالة وخيرا. أما القواعد الأخلاقية فإنها تؤصل لسلوك خيّر ونبيل وتجعل من الإنسان خيرا وفاضلا. والحب الذي يوقظ فينا الاهتمام بالآخرين يدفعنا إلى احترام القواعد الأخلاقية ومجاراة السلوك الحسن. ومن ثمّ فإن مراعاة القوانين والقواعد الأخلاقية يؤدي إلى توليد الثقة بالآخرين ويمكّن من بناء علاقات ثقة ومحبة وعدالة معهم.

وهنا في هذا المقام يجب تحقيق التوازن والتكامل بين التربية على المبادئ الأخلاقية والثقافة التي تصقل القلب وتنهض به. فالتربية التي تقوم على المبادئ والقواعد الأخلاقية دون شغف ودفء ومحبة تتحول إلى تربية شكلية مفرغة من مضمونها الإنساني. ويمكن للإنسان الذي يعايش هذه التربية الأخلاقية الصارمة أن يكون أخلاقياً ومهذباً ولكنه سيفتقر إلى الشفقة والمحبة والحساسية الإنسانية. والإنسان سيكون في هذه الحالة جارحاً وعنيفاً مع الآخرين حيث لا يمكنه أن يعبر وأن يستقبل حب الآخرين ورعايتهم.

وعلى خلاف ذلك فإن التربية المشبعة بالحب مع قليل من القواعد الأخلاقية يمكنها أن تؤدي إلى بناء أشخاص يفتقرون إلى القيمة الأخلاقية والإحساس بالمسؤولية. وقد يكون المرء عاطفيا مع الآخرين ولكنهم لا يستطيعون إقامة علاقات اجتماعية فعالة ونشطة معهم حيث لا يمتلكون تصورات حقيقة عن التضحية والولاء والمثابرة وهي قيم ضرورية من أجل بناء علاقة أخلاقية متماسكة.

وما تقدم يومئ بأهمية بناء الكيان الأخلاقي على مبدأ التوازن بين قيم القلب وقيم العقل والوجدان من أجل الدخول في علاقات إنسانية متوازنة ومتكاملة على أساس من القيم الأخلاقية الشاملة والكونية. وهؤلاء الذين تربّوا على هذا الأساس يستطيعون إدراك البعد الأخلاقي للوجود كما يستطيعون بناء علاقات أخلاقية بسهولة، ومن ثم يستطيعون تأسيس بيت الزوجية وضمان استقراره، ويصبحون في المستقبل آباءً جيدين، وهم في كل الأحوال يستطيعون العيش بسلام ووئام تحقيقا للغايات العليا الأخلاقية.

ويمكننا في هذا المقام أن نعلن بأن التربية الأخلاقية الحقّة تقوم على التكامل الفعلي بين ثقافة القلب وثقافة المعايير الأخلاقية أي ثقافة العقل وأن هذه التربية مؤهلة بجدارة لبناء الروح الحقيقية للإنسان الخلاق المصقول أخلاقيا والمؤهل إنسانيا. ومثل هذه التربية تشكل منطلق وعماد كل تربية حقيقة تريد أن تنهض بالفرد والإنسان والإنسانية.

3- الإحساس بالمسؤولية وخدمة المجتمع:

نعني بتربية الإحساس بالمسؤولية تمكين الفرد من وضع إمكانياته الإبداعية كاملة في خدمة الجماعة والمجتمع. وهذا الأمر يتعلق بالقدرات والخبرات والإمكانيات التي يمتلكها الفرد، ومثل هذا

الأمر يتعلق بالمهارات الأكاديمية للفرد في دائرة علاقته بالمجتمع. فالفرد يمكنه أن يحظى بنصيب كبير من المعرفة العلمية الأكاديمية في مجال العلوم الإنسانية والتطبيقية مثل العلوم الطبيعة والاجتماعية أو الرياضيات والهندسات والطب والحقوق... إلخ.

فهذه العلوم ليست غاية بذاتها بل هي إمكانيات توضع ويجب أن توضع في خدمة المجتمع والإنسانية في نهاية الأمر. فالفرد المؤهل علميا قادر على تزويد مجتمعه بعلمه ومعرفته، والعلماء يشكلون مصادر حيوية كبرى لثراء المجتمع وتقدمه الإنساني. ولكن قدرة هؤلاء على خدمة مجتمعهم بعلمهم ومعارفهم تظل في حقيقة الأمر رهن التربية الأخلاقية التي تشكلوا في كنفها، إذ يجب على هؤلاء من أجل أن تعمّ الفائدة أن يكونوا قادرين على تكوين صلات اجتماعية مميزة بزملائهم ووسطهم الاجتماعي وأسرهم ومن يمتّ إليهم بصلة في مستوى المهنة كما في مستوى الحياة اليومية والاجتماعية. فالعمل الإبداعي للمفكرين والباحثين والعلماء والقادرين على العطاء في مختلف الميادين يمثل قيمة كبرى للمجتمع.

فثمة ارتباط كبير بين المعرفة العلمية والأخلاق فالمعرفة أيا كان نوعها ومستواها يجب أن توضع في خدمة المجتمع ومن أجل تحقيق تقدمه وازدهاره ولا يمكن للمعرفة هذه أن توظف إنسانيا ما لم توجه أخلاقيا وهذا التوجه الأخلاقي غالبا ما يكون رهين التربية الأخلاقية التي تلقاها أهل العلم والمعرفة. فالطبيب يجب أن يكون أخلاقيا بالدرجة الأولى وكذلك هو حال المهندس والقاضي والميكانيكي ومن غير البعد الأخلاقي لهذه المهن فإن المعرفة والخبرات تتحول إلى طاقة مدمرة في المجتمع كالطبيب الذي يخدع مرضاه والمهندس الذي يغش مبناه فيعرض الناس للموت والخطر وهو حال الضابط الذي يخدم في الجيش حيث يكون شرف الوطن هو أسمى ما يمكن أن يؤديه دفاعا عن شعبه وأمته.

وهنا تبرز القيمة الأخلاقية لهذه المهارات والمهن حيث تقتضي الضرورة أن يمتلك أصحاب الخبرات قلوبا بيضاء عامرة بالحب وعقولا مصقولة بالقيم من أجل الأداء الأخلاقي في مجال عملهم وإبداعهم.

فالأرض التي نعيش عليها هي أشبه بالأم الحنون التي تعطينا نسغ الحياة، ومن هنا يجب علينا بالضرورة الأخلاقية أن نعامل الطبيعة كما نعامل أمهاتنا بمحبة واحترام وإجلال وإكبار وتقدير.

والعالم الطبيعي يمكن أن يعامل كامتداد طبيعي لأجسادنا ووجودنا الفيزيائي، لأن وجودنا مستمد في جوهره من الطبيعة الخلاقة التي أنجبتنا ودفعت الحياة في قلوبنا ونفوسنا.

وفي هذا المقام يمكن القول: إن الإنسان الذي يمتلك روحا أخلاقية أصيلة متماسكة يشعر بالقدرة على حب الآخرين، ويشعر بأنه قادر على تثقيف نفسه، وصقل ملكاته، ليقدم لمجتمعه كل ما يستطيعه من عطاء وعمل وإبداع، سواء أكان ذلك في مجال التكنولوجيا أم في مجال العلوم الإنسانية، أو في أي مجال علمي آخر. وهذا يعني في نهاية الأمر أن بناء أناس من هذا النوع المبدع الأخلاقي المؤمن برسالته الإنسانية يشكل نوعاً من الثراء الإنساني في الحياة والمجتمع.

وهذه الأوجه الثلاثة للتربية الأخلاقية (تربية القلب، وتربية القيم، وتربية المهارات) تشكل منطلقاً لعملية بناء المواطن الإنسان الذي يمكنه أن ينهض بنفسه وبمجتمعه إلى أفضل مراتب رقي الإنسان ونهوض المجتمعات الإنسانية.

خلاصة: التربية المتوازنة :

تبين الملاحظات الجارية أن الأنظمة التربوية القائمة ما زالت قصيّة عن تحقيق التوازن الأخلاقي المنتظر. فالتربية السائدة في بلداننا تركز على الجانب الثالث من الجوانب الأخلاقية والذي يتمثل في بناء الإنسان المثقف المؤهل علميا وأكاديميا على حساب الجانبين الأخريين الأساسيين في التربية الأخلاقية. وهذا النوع من التربية يزود المجتمع بالخبرات والمؤهلات العلمية دون أن يركز على الجوهر الأخلاقي. ومن أجل تقديم تصور أعمق حول هذا التفكك في التربية الأخلاقية علينا أن نتساءل على سبيل المثال وليس الحصر، من أين يأتي هؤلاء الخبراء والمبرمجين في مجال الحاسوب الذي يوظفون قدراتهم الإبداعية في اختراع "فايروسات" تعمل على تدمير النشاطات الإنسانية والمؤسسات العامة وتعطيل بنوك المعلومات في مختلف أنحاء العالم؟ **ومن أين يأتي هؤلاء الفنانون المبدعون الذين يروجون للعهر والعنف والمخدرات؟** وبكل بساطة نقول إن السبب في ذلك هو غياب ثقافة القلب والضمير، ولأن عالمنا المعاصر يعاني من آثار الأنانية وتفكك الأسرة، وهذا كله يؤدي إلى تراجع القيم الأخلاقية في هذا العالم المريض بالجشع والأنانية والوحشية.

وهنا يتوجب علينا أن نعلن : **بأن تصحيح الخلل وإحياء القيم في المجتمع واجب تربوي وهو يشكل أحد أهم وأخطر التحديات التي يواجهها القرن الحادي والعشرين. فالتربية الحقيقية التي تتناغم مع متطلبات هذا العصر واحتياجاته تتمثل في بناء الروح وتشكيل الضمير وصقل الإنسان بالقيمة الأخلاقية صقلا يطرد صدأ الأنانية وأدران الجشع ويغسل القلوب بماء المحبة ويطهر العقل بنور المعرفة الإنسانية أي هذه المعرفة التي توضع في خدمة الإنسان لا في مواجهة طموحاته وأحلامه.**

فازدهار المجتمع وتقدمه يقوم على أساس المواطنة الحقيقية لأشخاص صقلوا أنفسهم بالقيم الأخلاقية، وآمنوا بدورهم الإنساني الخلاق في عملية بناء مجتمعهم، وأدركوا القيمة العليا لمسألة الواجب والضمير والمبادئ الأخلاقية فاهتدوا بها في مسار حياتهم لتأدية رسالتهم الإنسانية الخلاقة. وهؤلاء الرجال الذين تشبعوا بالقيمة الأخلاقية لن يسمحوا يوما لأنفسهم بتقديم مصالحهم الأنانية على مصالح شعبهم ووطنهم وأمتهم.

إن المعرفة والمواهب بمختلف أنواعها تفقد تألقها وقيمتها الإنسانية ما لم تؤصل بتربية أخلاقية تهذب الضمير وتحيي القلوب وتنير العقول. فالضمير الإنساني يشكل في جوهر الأمر نور الهداية الذي يوجه المعارف والعلوم والخبرات والكفاءات، ومن غير القيمة الأخلاقية فإن هذه المعارف قد تشكل خطرا على المجتمع يفتك بمقدراته الإنسانية. فلا قيمة لمعرفة من غير ضمير ولا معنى لموهبة من غير قيمة أخلاقية ولا أمل يرتجى من هذا وذاك إلا في دورة إيمان بالقيم الأخلاقية للحياة الإنسانية.

فالتجارب، وما أعمق دلالاتها، تبين بوضوح كبير أن السلوك الإجرامي يبدأ من مشكلات صميمية لعائلات مفككة، وأن الإبداع والسلام ينطلق من بوتقة أسرة سعيدة متوازنة بمكوناتها ووظائفها الأخلاقية. وبالنتيجة يمكن القول: إن المجتمع المزدهر يتشكل من مواطنين حققوا نضجهم الأخلاقي وصقلوا قلوبهم وضمائرهم بنور المحبة والإيمان بالله والقيم الإنسانية الخلاقة. وهؤلاء هم الذين وجدوا في أحضان أسرهم المحبة والقيم وتذوقوا طعم السعادة في كنف محبيهم.

فالتربية الأخلاقية الحقّة يجب أن تأخذ بين حناياها بعدي الجسد والروح كي تستطيع أن تطلق الشباب إلى مناهل الحرية والعمل والبناء. فالتربية الأخلاقية تنهض بجناحيها هذين روحيا

وجسديا من أجل تكوين أجيال تتمتع بالقدرة على مواجهة التحديات وتقرير المصير. فالجذور الحقيقية للسعادة الإنسانية تضرب في منبت الشخصية وتتشكل في الأوساط العائلية التي تتميز بدفئها وثرائها العاطفي. والسعادة التي يمكن أن تصدر من الثراء المادي ومن الثراء العلمي لا يمكنها أن تتحقق إلا من خلال البعد الأخلاقي الذي يومض بالجمال والحق والخير في أحضان الأسرة المحصنة بالقيم الأخلاقية والتدفق الإنساني العاطفي.

فكوكبنا يأخذ مشهده المؤثر من الفضاء الخارجي بوصفه كيانا" خلاقاً واحداّ يسحر الخلق بجماله ووحدته وتكامله وسحره. وهذه الوحدة الكونية لكوكبنا الجميل تجعلنا أكثر قدرة اليوم على فهم المعضلات التي نواجهها كما تعطينا القدرة على تجاوز الأحكام والرؤى القاصرة حول العرق والعقائد والطبقات والأنواع وهي الأمور التي تفصلنا وتشطرنا وتدمر وحدتنا.

والسؤال هنا ما الذي نشترك فيه وما هي القواسم المشتركة الواحدة التي تجمع بيننا نحن بنو البشر؟ فعلى الرغم من مظاهر الانقسام والتشظي والانشطار التي تحيط بنا فإن الإنسانية جمعاء تمتلك روحا أخلاقية واحدة متجانسة أبداً. فالناس جميعا في كل أنحاء العالم يحترمون القيم ويمجدون العدالة ويرفعون من شأن المدنية والحضارة ويقدسون الحقيقية. وفوق ذلك يمجدون العقلانية والوطن واللغة والدين. والناس جميعهم يستوحون هذه القيم الكونية ويرفعون من شأنها.

المراجع والهوامش

- وطفة، علي (2010). الأسس الرمزية والأسطورية لنشأة الأخلاق في سيكولوجيا فرويد، المعرفة السورية، العدد 566 السنة 49 – تشرين الثاني / نوفمبر.
- وطفة، علي (2009). عقلنة العنف قراءة فلسفية في البعد الأخلاقي، مجلة بناة الأجيال، العددان 70-71.
- وطفة، علي (2009). التربية الأخلاقية في منظور دوركهايم، مجلة التربية القطرية، العدد 170 السنة الثامنة والثلاثون، سبتمبر (صص 142-156).
- ناصر، إبراهيم (2006). التربية الأخلاقية، دار وائل للنشر، عمان.
- سالم، فاطمة الزهراء (2007) التربية الأخلاقية في المجتمع العربي المعاصر، دار العالم العربي، القاهرة.
- زاهر، ضياء الدين (1986). القيم التربوية، مؤسسة الخليج العربي، القاهرة.
- جورج، جورجي تدميان (2006). الوظيفة الخلقية للمدرسة، مجلة كلية التربية، جامعة قناة السويس، العدد 1.
- الجلاد، ماجد زكي (2007)< تعليم القيم وتعلمها، دار المسيرة، عمان.
- بدوي، عبد الرحمن (1976). الأخلاق النظرية، وكالة المعلومات، الكويت.
- William J., Benneth (1991). Is our Culture in Decline?, Education Week, avril.
- Vincent , Philip(1980). conférence à l'école de Canandaigua (New York)
- Lickona, Thomas (1991). Educating for Character: How Our Schools Can Teach Respect and Responsibility, Bantam, New York.
- Arnold J., Toynbee (1951). La civilisation à l'épreuve, Gallimard, Paris.